الازدواجية اللغوية ورهانات الهُوية والعولمة الثقافية: (قراءة في ضوء الدراسات الثقافية)

Bilingualism and Stakes of Identity and Cultural Globalization:(Reading in View of Cultural Studies)"

أ.م.د. سناء الجمالي
قسم اللغة العربية وآدابها/كلية الآداب والعلوم الاجتماعية
جامعة السلطان قابوس
Assist. Prof. Sana Al- Jamali
saan@squ.edu.com

أ.د. منى جابر التميمي
قسم اللغة العربية/ كلية التربية للبنات
جامعة الكوفة
Prof.: Muna Jabir Al- Tamimi
drmunajabir@gmail.com

المستخلص :

يُعنى البحثُ بدراسة الوظائف الاجتماعية والثقافية والحضارية للغة وفق الدراسات الثقافية التي تدرس الترابط الجدلي بين الفكر واللغة وعلاقتها بالوعي الحضاري والهوية الثقافية، ويتحقّق هذا الأمر بتحليل العلاقة القائمة بين اللغة والممارسات الاجتماعية والثقافية، يلي ذلك تفسير وظائف اللغة وما ينشأ عنها من قضايا لغوية تتعلّق باللغة الأم وتراتبية الهامش والمتن في علاقتها باللغات المحلية والهجينة، وكذلك بالثنائية اللغوية أو التعددية اللغوية؛ وعلى هدي هذه الرؤية ستتم قراءة الأنساق اللغوية المؤثِّرة في صياغة الوعي بالهُوية، بوصفها مفاهيم ووقائع قارة في الواقع اللغوي والحضاري، إذ إنَّ التلازم بين اللغة وتكوّن الهويات يفضي إلى اعتبار اللغة المرتكز الرئيس في التركيب الحضاري للأمم كلها بأنساقها الثقافية والاجتماعية والمعرفية، وسيعرض البحث لظاهرة الازدواجية اللغوية بقسميها وعلى النحو الآتي:

١. الازدواجية اللغوية بين الفصحى والعامية.

٢. الازدواجية اللغوية بين اللغة العربية واللغات الأخرى.

فمن المعلوم أنَّ الإنسان يتلقّى عالمه باللغة، وتتكوَّن معارفه وأنماط وعيه بوساطتها، بل إنّ أفكاره لن تتمظهر فعليًّا إلّا باللغة التي يتداولها، لذا نجد أنَّ الإنسان العربي الذي يفكِّر بالعامية ويعبّر عن مشاعره بلغته العامية المحلية سيواجه صعوبة في نقلها إلى اللغة الفصيحة، وسيؤدي ذلك النقل إلى خسارة المدى الدّلالي للكلمات وإيحاءاتها وظلالها، وهو أمر يماثل الترجمة من لغة إلى أخرى، ويبدو ذلك جليًّا في تكوّن هويات محلية متشظّية عن الهُوية الأُم؛ فضلًا عن أثر الثقافة الغربية الغالبة في تكوين أنساق معرفية وحضارية وثقافية تجعل اللغات الأجنبية ولا سيَّما الإنكليزية على قمّة هرم التراتبية اللُّغوية، هذا إلى جانب انحسار اللغة الفصيحة وعيًا وثقافةً في مشاريع التنوير والتثاقف والتواصل ضمن ما يُعرف اليوم بالعولمة الثقافية.

الكلمات المفتاحية: الازدواجية اللُّغوية، الدراسات الثقافية، العولمة الثقافية، الوعي، الهوية.

Abstract:

This research delves into the crucial role that language plays in shaping social, cultural, and civilizational functions. Drawing on cultural studies, we explore the intricate relationship between ideology and language, and how they contribute to our understanding of cultural identity and civilizational awareness. Our analysis focuses on the interplay between language, social and cultural practices, highlighting the linguistic issues that arise in connection with native language, local and hybrid languages, and bilingualism and multilingualism.

Our research reveals that language patterns have a profound impact on the formation of identity, as they shape our concepts and beliefs about the world. We argue that language is a cornerstone of civilizational composition, as it reflects the cultural, social, and cognitive patterns of entire nations. To illustrate this point, we examine the phenomenon of bilingualism in two distinct contexts: Colloquial and Standard Language.Arabic and Other Languages.

We recognize that language is the primary means by which we acquire knowledge and awareness, and that our ideals are expressed through the language we use. However, we also acknowledge that the use of colloquial language can pose challenges when attempting to convey complex ideas in standard Arabic. This can result in a loss of semantic scale and connotations, leading to fragmented local identities that are disconnected from the broader cultural context.

Moreover, we recognize the influence of Western culture on the formation of cognitive, civilizational, and cultural patterns. Our research underscores the importance of understanding the complex interplay between language, culture, identity, and the need to develop strategies that promote linguistic diversity and cultural awareness. By doing so, we can foster a more inclusive and equitable society that values and celebrates linguistic and cultural differences in the so-called cultural globalization.

Keywords: Bilingualism, Cultural Studies, Cultural Globalization, Awareness and Identity.

المقدمة:

إنَّ أهم مفاتيح القراءة البحثية المنضبطة هي المقاربات، المعتمدة على الرؤية العلمية المنضبطة القائمة على تحديد ماهيَّة الحقول المعرفية المرتبطة بغاية الدراسة ومحدداتها المنهجية وآلياتها الإجرائية، فضلًا عن تحديد نقاط الالتقاء والافتراق بين المنهج العلمي المعتمد وخارجه لا سيَّما في البحوث التي تدرس أنساقًا معرفية متعددة تتماز بخصائص ذاتية لكلِّ نسق أو ظاهرة؛ وترتبط -كذلك- مع بعضها بعلائق تبادلية، وعنوان هذا البحث يُعد أنموذجًا على ذلك التداخل، إذ إنَّ البحث في اللغة والهوية والظواهر المتعلّقة بهما ضمن بنية ثقافية تتصاع

للعولمة ومفاهيمها، وسيكون محكومًا بقراءة تعي الأُسس التي كوَّنت نظامهما المعرفي بكل تمايزاتها كما تعي المشتركات الجامعة بينهما.

يُعنى البحث بدراسة الوظائف الاجتماعية، والثقافية، والحضارية للغة وَفق الدراسات الثقافية التي تدرس الترابط الجدلي بين الفكر واللغة وعلاقتها بالوعي الحضاري والهوية الثقافية؛ ويتم هذا الأمر بتحليل العلاقة القائمة بين اللغة والممارسات الاجتماعية والثقافية، ثم تفسير وظائف اللغة وما ينشأ عنها من قضايا لغوية تتعلّق باللغة الأُم، وتراتبية الهامش والمتن في علاقتها باللغات المحلية والهجينة، وكذلك، بالثنائية اللغوية أو التعددية اللغوية.

ومن المعروف أنَّ الإنسان يتلقَّى عالمه من خلال اللغة، وتتكوَّن معارفه وأنماط وعيه بوساطتها، بل إنَّ أفكاره لن تتمظهر فعليًّا إلّا باللغة التي يتداولها، لذا نجد أنّ الإنسان العربي الذي يفكِّر بالعامية ويعبّر عن مشاعره بلغته العامية والمحلية سيواجه صعوبة في نقلها إلى اللغة الفصيحة، وسيؤدّي ذلك النقل إلى خسارة المدى الدّلالي للكلمات وإيحاءاتها وظلالها، وهو أمر يقارب الترجمة من لغة إلى أخرى، ويبدو ذلك جليًّا في تكوّن هويات محلية متشظية عن الهوية الأم؛ فضلًا عن أثر الثقافة الغربية الغالبة في تكوين أنساق معرفية وحضارية وثقافية تجعل اللغات الأجنبية ولا سيَّما الإنكليزية على قمّة هرم التراتبية اللغوية، ممّا يعني انحسار اللغة العربية الفصيحة وعيًا وثقافةً في مشاريع التنوير والتثاقف والتواصل، ضمن ما يعرف بالعولمة الثقافية.

وعلى هدي هذه الرؤية ستتمُّ قراءة الأنساق اللغوية المؤثِّرة في صياغة الوعي بالهوية، بوصفها مفاهيم ووقائع قارّة في الواقع اللغوي والحضاري، إذ إنَّ التلازم بين اللغة وتكوّن الهويات يفضي إلى اعتبار اللغة المرتكز الرئيس في التركيب الحضاري للأمم كلّها بأنساقها الثقافية والاجتماعية والمعرفية. وسنعرض محاور البحث على النحو الآتي:

أولًا: التعريف بمفاهيم: اللغة والهوية والدراسات الثقافية.

ثانيًا: مناقشة طبيعة العلاقة بين اللغة والهوية.

ثالثًا: مناقشة الازدواجية اللغوية بين اللغة العربية الفصحى والعامية.

رابعًا: مناقشة الثنائيّة اللغويّة بين اللغة العربية واللغات الأخرى ورهانات العولمة الثقافية.

وبناءً على المحاور المذكورة آنفًا تحاول الدراسة تحقيق الأهداف الآتية:

١- تكوين رؤية نقدية قادرة على صياغة مفاهيم تقترب من الواقع اللُّغوي، وتبحث عن ماهيَّة اللغة وأثرها في صناعة الهوية.

٢- تحديد أثر الازدواجية اللُّغوية في أنماط الوعي المُشكِّل للبنية الثقافية والحضارية.

٣- رصد آليات المثاقفة والتأثّر والتأثير في واقع البنية اللُّغوية والمعرفية، ضمن مفاهيم العولمة الثقافية.

أولا: تعريف بمفاهيم (اللغة، والهوية، والدراسات الثقافية):

اللغة:

اللغة بتعبير ابن جني هي: "أصوات يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم" (ابن جني: ١٩٩٠: ٣٤/١)، وبرؤية إيميل فنسنت "فهي واسطة التعبير الذي يتجاوز المدى الفيزيائي للصوت ليقترن مع المحتوى الإنساني الذي لا يمكن له أنْ يوجد إلَّا بفهم هذا المحتوى وتكوين تصوّر للعالم من حوله، إذ ستنشأ في ذهن الإنسان مفاهيم وتصوّرات تتبلور شكليًّا بأصوات ورموز تكون ماهيّة التعقّل الإنساني؛ فلولا اللغة لأصبحت الفكرة شيئًا مبهمًا غير واضح المَعالِم، إذن لا توجد أفكارٌ يسبق اللغةَ وجودُها، ولا تتميّز هذه الأفكار قبل ظهور اللغة" (هيلمسليف: ٢٠١٨: ٧٤)، فهي ليست قالبًا يصبُّ فيه الفكر، وإنما هي مادة مرنة توفّر الدّوال التي يحتاج إليها الفكر عبر سلسلة من العمليات المعقدة والمحكومة بنسقي الاستبدال والاختيار في الممارسة اللُّغوية. فالصيغة المتداولة لطبيعة العلاقة بين اللغة والتفكير الإنساني هي ما يُعرف بالتلازم بينهما، ولا يمكن فصلهما بحسب رؤية *هيدر*، وكذلك، يؤكد *تشومسكي* هذه الفكرة، إذ يرى أنَّ اللغة تؤدّي دور التفكير نفسه (ليونز: ٢٠٠٩: ٢٣٨).

ووظيفة اللغة لا تتحدد بآليات التواصل والتعبير والعرض الخارجي المصاحب للعمليات الذهنية، بل هي الوضع الذي تتخذّه الذات الإنسانية في عملياتها العقلية على الرغم من كونها ليست الوسيلة الأوحد للتعبير، لكنها الأجدى في تجسيد الأفكار في عقل الإنسان ليعمل بعد ذلك في رصد المفاهيم وتحليلها وتصنيفها ضمن تصورات واعية تفسر العالم من حولنا؛ ومن ثم تتشارك مع الرؤى المحايثة لها في المجتمع، فالتواصل بين المجتمع والأفراد يحتاج إلى اللغة؛ لأنها متوطنة في الذات الفردية قبل الذات الاجتماعية، وبتحايثهما معًا يستمر الوجود المجتمعي المتخصص، لأنَّ اللغة هي السبب الرئيس في بقائه وَفق رؤية ليفي شتراوس، عندما قال: "إننا حين نقول الإنسان فإننا نعني اللغة، وحين نقول اللغة فإننا نقصد المجتمع" (أبو زيد: ١٩٨٣: ٨٠)، مؤكِّدًا بذلك تلازمهما.

الهوية:

يعد مفهوم الهوية من المفاهيم التي اختلف عليها من قبل الدارسين من حيث تحديد تعريف موحَّد لها، وأيضًا، من حيث تحديد أُسسها وآليات تكوّنها بحسب اختلاف زوايا نظر دارسيها؛ ومن هذه التعريفات:

ما ذكره الفارابي بقوله: "هوية الشيء ووحدته، وعينيته، وتشخصه، وخصوصيته، ووجوده المنفرد له كل واحد، وقولنا هو إشارة إلى هويته وخصوصيته، ووجوده المنفرد له الذي لا يقع فيها اشتراك" (الفارابي: د. ت: ٢١). وتعرّف، كذلك، الهوية بكونها "حقيقة الشيء من حيث تميزه عن غيره؛ وتسمى –أيضا– وحدة الذات" (مدكور: ١٩٨٣: ٢٠٨).

يمثِّل التمايز الأس الأول لمفهوم الهوية الذي تدرك به الذات ذاتها وذوات الآخرين، ولأنَّ الإنسان كائن اجتماعي فلا بدَّ من هوية تجمعه مع آخرين يشترك معهم فيها بسمات وخصائص تميزهم عن غيرهم، في صورة مجتمع معين، فلا وجود لهوية خارج المجتمع والتاريخ، فالأمة وحدها تملك الهوية (الجابري: ٢٠١٢: ١٠)، ممَّا يعني أنَّ الهوية طريقة لتعريف الفرد داخل حدود جماعة معينة تمكّنه من بناء ذاته على مستوى فردي غير منقطع الصلة عن المجتمع الذي ينتمي إليه؛ لكن في الوقت نفسه، لا يجعله ذلك شبيهًا بأيِّ إنسان آخر في مجتمعه، فلكلِّ إنسان سماته النفسية الخاصة به المكتسبة من تجاربه في الحياة، ممَّا يؤثِّر على تكوين ملامح شخصيته من الناحية الفكرية والثقافية والاجتماعية، وهذا يؤدِّي إلى تميّزه عن أيِّ فرد آخر من ضمن المجتمع الذي ينتمي إليه مع وجود شبه بينهما، وذلك لإيمانهما بالانتماءات الجوهرية ذاتها التي يؤمن بها المجتمع الذي ينتميان إليه (معلوف: ١٩٩٩: ١١–١٢)؛ ممَّا يؤكِّد حقيقة أنَّ الهوية الإنسانية –تبعًا لذلك– تعدّ هوية متجددة لكونها متغيّرة ومتحركة بحسب طبيعة التجارب التي يصادفها الإنسان في حياته (معلوف: ١٩٩٩: ١١–١٩).

الدراسة الثقافية:

تعتمد الدراسة الثقافية على مفاهيم وتصورات متعددة تستغرق زوايا نظر مختلفة للعالم تبرز فعاليتها بقدرتها على مقاربة المظاهر الثقافية في إطار وصفي تحليلي يستقرأ أنساق الهيمنة التي تتحكَّم فيها جهات ثقافية معينة، لذا فهي متعدِّدة المناهج والتخصصات تتماز بضبابية التأطير بينها، وبين باقي البنى والحقول المعرفية إذ إنَّها أفادت من المناهج الأبستمولوجية والسوسيولوجية والماركسية وما بعد البنيوية وغيرها، ولسنا بصدد تحقيب تلك

الدراسات فما يهمنا هو المجال المعرفي للدراسة الثقافية وعلاقته بقراءة المتن الثقافي للمجتمع (Bertens: ٢٠١٠: ١ . ١٣٥ . ١٣٩ Eagleton: ٢٠٠٠: ١-٣).

تطوَّرت الدراسات الثقافية، بانعتاقها من ربقة النظرية الواحدة وعدم حصرها في مفاهيم محددة، في قدرتها على تحليل وتفكيك الظواهر الثقافية المختلفة وإن تعددت البيئات المنتجة لها؛ فهي تعمل "وفق تصوُّر متعدِّد التخصّصات ينهل من تخصصات النظرية الاجتماعية، والاقتصاد، والسياسة، والتاريخ، ودراسة الاتصالات، والنظرية الأدبية والثقافية، والفلسفة، وغيرها من الخطابات النظرية- المشتركة في مقاربتها مع مدرسة فرانكفورت، والدراسات الثقافية البريطانية ونظرية ما بعد الحداثة الفرنسية" (إدواردز: ٢٠١٢: ١١٥). ممّا يؤكِّد فكرة أنَّ الدراسات الثقافية تُعنى بكلِّ ما ينتجه الإنسان في الحياة العامة (الرويلي/ البازعي: ٢٠١٧: ١٣٩).

ومن أهم مرتكزات الدراسة الثقافية هو انطلاقها من أنَّ كلّ ممارسة للحياة بسيطة كانت أم معقَّدة هي في حقيقتها ممارسة رمزية تحيل على دلالات غائبة أو مغيبة بفعل هيمنة أو سلطة مظهر ثقافي أو اجتماعي كوّن مجموعة من التمثيلات المولّدة عبر الممارسات الإنسانية الدّالّة في فعلَي التلقي والإنتاج، وكذلك، ركّزت على دمج دراسة الثقافة الشعبية أو الجماهيرية مع ثقافة النخبة وجعل الناس في مستوى واحد بخضوعهم لهيمنة الفعل الثقافي (الخليل: ٢٠١٢: ٢٢)؛ ولم تغفل الدراسات الثقافية عن تطوير مقارباتها حول علاقة الثقافة بالسلطة، فقد عدَّت المعايير الجمالية الكونية والنصوص الرسمية المعتمدة في الواقع الحضاري نتيجة لممارسات اجتماعية وسياسية متأصِّلة في ممارسة مجموعة من المؤسسات المرتكزة على آليات السلطة والهيمنة (نلوف: ٢٠٠٥: ٩/٢٥٠). وتأسيسًا على ما تقدَّم فإنَّنا سنفيد من مرتكزات الدراسة الثقافية ومفاهيمها، لا سيّما في قراءتها للهيمنة الفاعلة والسلطة المؤثِّرة في صياغة أنساق معرفية مؤثِّرة في البنية المجتمعية وتكوين الهوية.

ثانيا : اللغة والهوية:

ترتكز العلاقة بين اللغة والهوية على الترابط الجدلي بينهما، إذ يشتركان في نسيج علائقي يتفاعل مع متكلم اللغة ومجتمعه، بمعنى أنهما يتساكنان مع ما هو خاص وما هو عام بتفاعل تحكمه عناصر متعددة تسهم في تأسيس الوعي وصياغته بطرائق مختلفة تتبع عناصر الثبات والتغير في المجتمعات، وتتحوَّل بفعل السياقات المؤسِّسة لها والمتأثِّرة بالتغيرات الاجتماعية. فاللغة كما الهوية ليست معطى ثابتًا بل تتفاعل مع الذات ومع الآخر

بتقاطب وتنافر حينًا واتساق وانسجام في أحيان أخرى، ممَّا يفضي إلى ارتباطهما بالوجود المجتمعي والثقافي للإنسان بكل حمولاته المعرفية وطرائق التفكير والمشاعر والثوابت الروحية للشعوب وصولًا إلى التجذّر الديني والممارسات الثقافية، التي ترتبط مع اللغة والهوية بعلائق دائرية وبحلقات مترابطة تتداح بعضها من البعض الآخر.

هذا الترابط لا يعني انحسار التراتبية بينهما في أسبقية الوجود وأهمية التأثير إذ اتفقت أغلب النظريات الفلسفية على كون الهوية أسبق في الوجود الإنساني من اللغة وأنَّ اللغة واسطة من وسائط التعبير عن الهوية (حنفي: ٢٠١٢: ١١)، بحسبان أنَّ كل هوية هي لغة، وليست كل لغة هي هوية، فالوجود بحسب الرؤية الفلسفية يكون سابقًا على الوعي، لكن هذا الأمر لا ينفي كون اللغة هي التي تعطي الوجود للإنسان، الذي لا يمكن له أنْ يوجد إلا بمقدار ما يملك من لغة (إبراهيم: ٢٠٠٩: ٢٠٣).

هذا ما أكَّدته النظريات الاجتماعية، التي ترى في اللغة ظاهرة اجتماعية لا تقوم وظيفتها على التواصل فحسب، وإنَّما تتعدّى ذلك لتكون أهم تجليات الهوية في المجتمعات الإنسانية من بداية تشكّلها، فاللغة تنمو مع المجتمعات وتساير الإنسان في تكوين صورته عن نفسه وعن العالم من حوله مكتنزةً مشاعره وأفكاره بعلائق تفاعلية يولِّد أحدهما الآخر، فتتحوّل اللغة إلى ينبوع للفكر والمشاعر يمتح منه الإنسان وجوده ومعطيات تكونه منه؛ لذا تعدّ اللغة من أهم القواسم المكوّنة للهوية التي تشتمل على مكوّنات متعدّدة تتحايث مع اللغة، وتتّسق معها لتمثيل المظهر المتكامل للوجود الإنساني؛ ولأنَّ اللغة تمثّل نتاج الوعي الجمعي الذي لا يمكن للفرد الخروج عن آليات تمظهره في الواقع بمختلف أنساقه، فإنَّ أثرها في الممارسات الثقافية المكوّنة للهوية يكون كبيرًا ومؤثِّرًا ليعطي للغة دورًا أكبر في الهوية، لما تحمله الممارسة الثقافية من قوة إنتاجية توليدية تؤثِّر في البنية المجتمعية والحضارية، فلا وجود لواقع غير لُغوي والمعاني كلها تنتج باللغة ومن خلالها، لا من بنية فوقية متعالية على اللغة. فكلّ ثقافة يندرج الكلام واللغة فيها؛ فتتكوّن بنياتها الرئيسة من التداخل المعرفي بينها، وهو ما أكّدته الفيولوجيا البنيوية لسوسير في مقاربته لثنائية اللغة والكلام، إذ عدّ اللغة البنية الرئيسة أو التحتية للكلام، الذي يمثل –الكلام– بنيتها الفوقية؛ ومن العلائق والتمايزات بينهما تكتسب المفردات معانيها ضمن أطر وحدود تلك العلاقات (سوسور: ١٩٨٨: ٣٢). لكنَّ اللغة وإنْ بقيت مهيمنة في مفاهيم ما بعد البنيوية، إلّا أنَّها اتَّخذت مسارات أخرى في أفكار المنظرين. فحينما يرى دريدا أنَّ اللغة تتدخل بوصفها وسيلة لا مناص منها للمعرفة الإنسانية، فإنَّه يشير إلى أنَّ

هذا التدخّل يعيق إمكانيات المعرفة المحض، ليصل إلى أنَّ الوعي الثقافي والحضاري المتعالي على التاريخ يصطدم بمرتكزات الوعي المستمدة من اللغة الاجتماعية والتاريخية، واللغات الدارجة بكل التبدلات التي تطرأ عليها، وسيفضي ذلك الأمر الى تبني دريدا لمفهوم الأحادية اللغوية الممثلة لذاته "أنا أحادي اللغة وأحاديتي اللغوية هذه كانت وستبقى بيتي، هكذا أحسها، بل وهكذا أسكنها وتسكنني وهكذا ستبقى" (دريدا: ٢٠٠٨: ٢٣). وضمن هذه الرؤية المركّبة والعلائق الجدلية بين اللغة والهوية، نتلمَّس أهمية اللغة العربية في تجربتنا الحضارية العربية /الإسلامية وواقعنا المعاصر، إذ افترقت اللغة العربية عن اللغات الأخرى لارتباطها بالدِّين الممثِّل الأكبر في تكون الهوية نقضًا أو قبولًا، فلم تكن اللغة العربية جهازًا صوتيًّا تواصليًّا فحسب، وإنَّما مثّلت حضارةً ومجتمعًا وهويةً، وبَنَتْ تصوّر الإنسان العربي للعالَم بوصفها أداة معرفة وصانعة فكر ينصاع إلى اللغة، ويمنحها سلطة مرجعية مهيمنة.

فقد أثَّرت اللغة العربية في طرائق تفكير الإنسان العربي بنظامها المعرفي الذي أسسته من بداية عصر التدوين واندرج ضمن النظم المعرفية الأخرى المؤسسة للحضارة العربية. وقد أشار د. محمد عابد الجابري إلى ملمح مهم، تمثَّل في كون اللغة المنقولة إلينا بواسطة المعاجم هي لغة القبائل البدوية التي رأى فيها جامعو اللغة الفطرة السليمة وسلامة النطق، إلَّا أنَّ التحديد المنطقي الصارم، واستخراج القواعد والقوالب اللغوية وتقنينها والحرص على الإيغال في حصر الغريب والنادر من اللغة، جعلت المتلقي لتلك اللغة –في زمن الجمع والتقعيد وما تلاها من عصور وأزمنة متعاقبة– مرتهنًا بحدود عالم الأعراب، الذي يهيمن بسيادة مطلقة على المادة اللغوية مبعدًا جزئيات الواقع اللغوي في حواضر العرب القديمة –مكة / الطائف/ دمشق وغيرها– وأفضى هذا الأمر إلى "أنَّ اللغة العربية الفصحى، لغة المعاجم والشعر والآداب قد ظلت، ولا زالت، تنقل إلى أهلها عالمًا يزداد بعدًا عن عالمهم، عالمًا بدويًّا يعيشونه في أذهانهم، بل في خيالهم ووجدانهم، يتناقض تمامًا مع العالم الحضاري– الآلي الذي يعيشونه والذي يزداد غنى وتعقيدًا" (الجابري: ١٩٩٩: ١٤٥). ممَّا أوجد فجوة بين الإنسان العربي ولغته.

أحسب أنَّ المعطيات السابقة في جمع اللغة العربية وما تلاها من صناعة نحوية وتحليل بلاغي، قد أرست دعائم بنية فكرية مختصّة بالإنسان العربي، لكنَّها ليست البنية الأوحد فيه؛ فالنص القرآني بكل حمولاته الدينية والعقائدية واللغوية والثقافية والتأويلية يعدّ المرجع الأول للغة العربية الفصحى وللهوية العربية فلا تعارض بين اللغة والقرآن ولا اختلاف بينهما، بل إن القرآن يخاطب الناس كافة، لذا فإنه يعمد إلى استعمال الطرق الخطابية والجدلية

والإقناعية، فضلًا عن التأويل؛ وكل هذا يعدّ ممارسات لغوية رسمت معالم البنية الثقافية العربية، بل وحفظت هويتها الخاصة، وإن في العربية سرًّا خالدًا، هو هذا الكتاب المبين (القرآن) الذي يجب أن يؤدّى على وجهه العربي الصحيح، وإلّا زاغت الكلمة عن مؤدّاها، فكيفما قلبت اللغة العربية وجدتها الصفة الثابتة التي لا تزول بزوال الجنسية وانسلاخ الأمة عن تاريخها (الجندي: ١٩٨٢: ١٨٧)، فلولا القرآن الكريم لما بقيت اللغة العربية الفصحى مقومًا أساسيًا للهوية العربية؛ وهو واقع لا يمكن إنكاره وسط الكم الهائل من اللغات التي تموت كل عام وينحسر وجودها. فبقاء اللغة مرتبط ببنيتها وبكيفيات تجلياتها الخارجية على ألسنة مستعمليها، فالقدرة على التكيف والبقاء لا ترتبط باللغة وحدها بل بشكل العلاقة بينها وبين مستعمليها، فحين كان وعي التأصيل والتماثل هو المهيمن على علاقة العربي بلغته الفصيحة كانت هويته ومساراته ومنجزاته الحضارية واضحة ومؤثرة وفاعلة، مثلت نقاط الارتكاز المعرفي والتاريخي الذي أنجب معطيات نظرية متطابقة مع أنظمة المعرفة والتاريخ والمجتمع، ومزجت اللغات الوافدة بتراتبية فرضتها قوة مستعملها، لكن سيادة وعي التأثّر بالآخر وضعف العلاقة بين اللغة العربية ومستعمليها بفعل ثنائية المرجعية اللغوية أدّى إلى تبنّي هويات معزولة عن نظام المعرفة المؤسّس لها والحاضن لكينونتها، إذ تسرَّبت أشكال وظواهر الازدواج اللغوي للبنية الحضارية والثقافية، ولم تكتفِ ببنيتها السطحية وإنما تغلغلت في بنيتها التحتية، لتشمل اللغة والدين والفن؛ فكلها تتماز بوظائف ثقافية تنتج نظامًا متخصِّصًا في إطار علاقاتها ببعضها ضمن دوائر الفواعل السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

ثالثا: الازدواجية اللغوية بين اللغة العربية الفصحى والعامية:

يتداخل مصطلح الازدواجية اللغوية مع الثنائية اللغوية في البحوث والدراسات المعنية به، ولم يقتصر ذلك التداخل على الاستعمال العربي له، وإنَّما تداخل كلٌّ منهما في الاستعمال الغربي للمصطلح؛ فقد عرفها وليم مارسيه بأنَّها: "التنافس بين لغة أدبية مكتوبة ولغة عامية شائعة" (الزغول: ١٩٨٠: ١٢٠)، ويلحظ في هذا التعريف التركيز على التنافس بين اللغتين، بمعنى أن وجود أحدهما يفرض نسخ الآخر ومحوه أو التفوق عليه في أقل تقدير، أي أنَّ السمة اللازمة بينهما هي التقاطب والصراع لا التكامل والتجانس، مع كونهما ينحدران من سلالة واحدة وتربط بينهما علائق مشتركة، لكن كل لغة منهما قد استقلت بسمة محددة، إذ وسمت اللغة الرسمية أو الفصيحة باللغة المكتوبة أي اللغة المعترف بها في البنية الحضارية، بينما اتسمت اللغة الأخرى بالشيوع والانتشار، وهو تعريف لا يحتوي على حدود واضحة للمفاهيم المرتبطة به. ويقترب فيرجسون من المفهوم نفسه

بتعريفه للازدواجية اللغوية، حيث يذكر أنها تعدّ وصفًا لغويًا مستقرًا نسبيًا تتضمن نمطين لغويين يتعارضان في الشيوع والعلو، ففي حين يكون أحدهما نخبويًا وغير شائع يتسم الآخر بعموميته وشيوعه (الزغول: ١٩٨٠: ١٢١). واتفق أغلب الباحثين على اعتماد ما ذهب إليه د. نهاد الموسى من أن الازدواجية اللغوية ترتبط بمستويين داخل اللغة الواحدة بينما يكون ميدان الثنائية اللغوية هو لغات متباينة بمختلف مستوياتها اللغوية (السامرائي: ٢٠١٧: ٦).

ينبني مفهوم ازدواجية اللغة على مبدأ أنَّ الإنسان يعاني من مشكلة الكتابة بلغة فصحى معربة حين يتكلم محيطه غير معربة، إضافة إلى أنَّه هو نفسه يمارس حياته باستخدامه للعامية؛ العامية، بمعنى أنَّ الإنسان كاتبًا أو أديبًا أو نخبويًّا كان، هو غير الإنسان لغويًّا. وتبدو هذه الازدواجية هامشية إذا ما نُظر إليها بشكل سطحي لكنها في الحقيقة ليست كذلك. فالمتكلم يتلقى محيطه باللغة، بمعنى أنَّه يستقبل هذا المحيط ويتعرّف إليه ويفهمه ويعبّر عنه باللغة التي يتحدثها (ريشل: ١٩٩٦: ١٠٨)، ومؤدّى هذا الأمر يعني أنَّ انطباعات المرء عن محيطه وأهله والعلاقات التي تربطه بمحيطه إنّما هي خزين في ذاكرة المرء؛ وهو عندما يستدعي هذا الخزين إنّما يستدعيه باللغة التي عرف بها المحيط أول مرة، وهي نفسها لغة أهل ذلك المحيط، ومن البديهي أنَّ لألفاظ اللغة ظلال وإيحاءات وعلاقات ذهنية وترابطات نفسية ليس من اليسير تخليصها منها (ريشل: ١٩٩٦: ١١)، وهو ما يعرفه مَن يترجم لغة إلى أخرى. فالازدواجية، تعدّ واقعًا حياتيًّا لا يمكن الفكاك منه؛ لأنَّ لغة المحيط هي لغة محكية، بل هي خليط من العامية المحلية ولغات وعاميات أخرى، وإذا كانت لغة المحيط -كما ذكرنا- فإنّ أيّ طفل يولد في هذا المحيط سيلقّنها من ذويه ومحيطه وسيتعرّف على العالم ومكوناته من خلالها، وسترتبط أحداث حياته ومخزون ذاكرته من المواقف المعبّر عنها بهذه اللغة، وسيستمر هذا الأثر لتلك اللغة على الإنسان طوال حياته، لكونه محاطًا بها، حتى لو تعلَّم غيرها؛ لأنَّ تعلّم لغة أخرى دون العيش فيها وبها سيُبقي السطوة للغة الأم. ويمكن التدليل على ذلك بتطبيق هذا الأمر على الشعراء الذين يكون الأمر أصعب عليهم؛ لأنَّ الشاعر سينتج صورة بلغة المحيط إنتاجًا ذهنيًّا، ثم يحوّلها إلى لغة أخرى بما يشبه الترجمة ليعيد صياغتها فنيًّا، أضف إلى ذلك صعوبة الإحاطة بظلال وإيحاءات اللغة الأخرى، الأمر الذي يقود الشاعر، مجبرًا إلى تقليد الجو النفسي والذهني للغة أخرى؛ مما يمكّنه من نقل لغته الجديدة إلى المحيط، فالشاعر الذي يفكّر ويعيش بالعامية لا يستطيع توظيف أدوات محيطه ومفرداته ومكوناته في الفصحى ولا يستطيع ترويض الفصحى لوصف محيطه، لأنَّه تعلّمها ولم يعشها، ولم يحط بإمكاناتها وأسرارها إلى الحدّ الذي جعله قادرًا على ترويضها، فالحل الوحيد الذي توصَّل إليه

الشعراء، لا سيّما شعراء المرحلة المتأخرة وبدايات القرن العشرين، هو الاستخدام الجاهز للفصحى بناءً على النماذج الموروثة، ويتم هذا الاستخدام الجاهز عن طريق ثبوت الأفكار والأوصاف ومكونات المحيط وعلاقاته بما يوازي ما ورد عن الشعراء السابقين، وثبوت الوعي والصورة الناتجة عن ذلك الاستخدام، على أمثلة قياسية.

كما أفضت ازدواجية اللغة إلى تحديد دور الخيال في إنتاج الصورة في وعي هؤلاء الشعراء (علوان: ٢٠٠٩: ١٧)، لأنَّ هذا الخيال تعرّض إلى عملية تنميط بما يوازي خيال الشاعر الفصيح، وهذا التنميط قد أفضى إلى ظهور دور المحيط في تكوين خيال الشاعر، ومن ثَمَّ اعتماد المضامين والصور الجاهزة، لذلك نشأت نزعة التقليد السائدة إلى الحدّ الذي صمم مواهب الشعراء وإمكاناتهم؛ لأنَّه فرض عليهم وعيًا مخصوصًا وصورًا بعينها؛ بعبارة أخرى فرض عليهم صورة للمحيط بشخصيّة لا تنتمي إلى مخزونهم العاطفي والفكري الذي عرفوا من خلاله العالم المرتبط بمحيطهم.

وكان لا بد من الإشارة إلى أثر الازدواج اللغوي بين الفصحى والعامية على مستوى النخبة الثقافية التي يمثلها الشعراء والأدباء لنفهم ونستوعب نتيجة ذلك الازدواج على فئات المجتمع الأخرى، التي تجد صعوبة كبرى في التعامل مع اللغة العربية الفصحى وسط التضخم الإعلامي والإيدلوجي، الذي يعمل جاهدًا من أجل إقصاء اللغة العربية الفصحى وصولًا إلى تذويب الهوية العربية المشتركة بين شعوب العالم العربي، بهدف خلق مناخات اجتماعية وثقافية ومعرفية تسمح بسيادة العامية، ثمَّ تشظّي الهوية المركزية إلى هويات متعدّدة تستند في مرتكزها الرئيس على العامية. وقد شهد الواقع اللغوي العربي معارك وخصومات بين اللغة العربية الفصحى واللهجات أو اللغات العامية منذ كتابات قاسم أمين في بدايات القرن العشرين مرورًا بأنيس فريحة ولطفي السيد الذي كتب مقالات لنصرة العامية في عام ١٩١٣، وصولا إلى الدعوات باعتماد التسكين في أواخر الكلمات (الجندي: ١٩٨٢: ١٨٥)، واستبدال الحروف العربية في الكتابة بالحروف اللاتينية أو ما يُعرف *بالفرانكو آراب*، وتعني كتابة الكلمات العربية بنطق عربي لكن بحروف إنكليزية/ لاتينية، لا سيما في التواصل عبر الوسائط الإلكترونية والتواصل الاجتماعي، في أجهزة لا تدعم –دائمًا– استعمال اللغة العربية وأحرفها الأبجدية.

يُلحظ على هذه الدعوات تجاوزها حدود المشافهة في العامية إلى المرحلة الكتابية ومعلوم أن التدوين لفكرة ما، يجعلها أكثر رسوخًا في الوعي اللغوي والحضاري، فقد كانت العامية لغة المشافهة حتى في العصور الأولى

للازدواج اللغوي في اللهجات القبلية، إذ لم تدوّن العامية ولم تعد لغة للكتابة في أيِّ عصر من العصور، وبقيت محددة جغرافيًّا بلسان القبيلة الواحدة قديمًا والشعب الواحد حديثًا؛ وبقيت -بذلك- اللغة العربية الفصحى هي اللغة المشتركة في الخطاب الاجتماعي والثقافي والمعرفي والحضاري بين الشعوب العربية، بخلاف الدعوات المعاصرة التي تحاول جعل العامية لغة مكتوبة مع كل ما يستتبعها من زحزحة البنى القارة للعربية الفصحى، وعن طريق توظيف العلاقة الجدلية بين اللغة والفكر؛ ليضحى الفكر عاميًّا وعيًا وإدراكًا وبوحًا وتعبيرًا وممارسة وسلوكًا؛ وهو من أخطر ما تتعرَّض له الهوية الثقافية، إذ إنَّ الأفكار حين تتحوّل إلى ممارسات، فإنَّها تغدو مولدًا لأفكار جديدة تتناسل من الفكرة الأولى، وتكون أكثر هيمنة على الوعي الإنساني.

هذه الرؤية كفيلة بإعادة تكوين الهوية المحلية؛ لتكون صانعة للثقافة المهيمنة بكل سلطتها التي تمنحها إياها اللغة مع المكونات الأخرى، وتتحوّل إلى تمهيدات ثقافية تنسف الهوية العربية المشتركة عن طريق استثمار دور البنى الفوقية للثقافة لتنساب بشكل تدريجي وصولًا إلى إيجاد إجماع ثقافي وحضاري، فتكون سلطة مضمرة قبالة سلطة الإجبار المعلن في الاستعمال الفصيح، وهو ما تراهن عليه تيارات العامية المرتبطة بالعولمة، إذ إنّها تعمل على ممارسة دور المقهور مجتمعيًّا وثقافيًّا وحضاريًّا والتمويه بسلطوية اللغة الفصيحة والهوية الرسمية المرتبطة بها، ليتحقّق لها بعد ذلك حقّ المطالبة بالحرية والتمرّد على سلطوية النص الفصيح، ومن ثَمَّ سلطوية الهوية المرتبطة به، وإيجاد هويات جزئية في بديل مجتمعي يلبِّي حاجاتهم، بهويات متسمة بالغرابة لكونها موزّعة بين استغراب واستشراق داخلي.

رابعًا: <u>الثنائية اللغوية بين اللغة العربية واللغات الأخرى ورهانات العولمة الثقافية:</u>

تُمثّل الثقافة رؤية شاملة للوعي الإنساني، وتمر بمراحل متسلسلة تبدأ من استلهام التجارب والتراث ومصادر المعرفة، ثم تعمد بعد ذلك إلى توظيف الأسس الأنطولوجية والمعرفية التي تساعدها في صياغة قيمها ومعتقداتها وتشكيل عناصرها الثقافية؛ وبعد ذلك تبدأ مرحلة التنافس أو التثاقف مع الرؤى الكونية الأخرى؛ فثمة انفصال واتصال في العلائق الرابطة بين الثقافات المختلفة، وما يحدِّد ذلك الأمر هو المصادر المعرفية التي تستمدّ المجتمعات منها إجاباتها عن أسئلتها الثقافية والحضارية، فمن المعروف أنَّ الشرق بعموميته يستمدّ إجاباته من

مصادر مغايرة لما يعتمده الغرب، وتتجلّى تلك الفوارق في القيم والمعتقدات وطرائق التفكير واللغة وصياغة الوعي وصناعته، بل حتى في اختيار المصادر المعرفية.

والمصدر المعرفي الأول للثقافة العربية يتمثّل في المنظومة الدينية وعلائقها الجدلية بالمنظومة اللغوية، ولعلَّ من أكثر مظاهر عولمة الثقافة وضوحًا في واقعنا العربي والإسلامي هو الفكر الديني وطبيعة فهم الظاهرة الدينية، اللذين تحدّدت من خلالهما أنساق القراءة الدينية للعولمة، وانقسم الموقف تجاه العولمة إلى قسمين رئيسين وإن تعددت محاور كل قسم منهما:

الأول: الرافض للعولمة والمتّخذ موقفًا متشددًا ومضادًّا منها، لأنَّ أصحابه يرون أنَّ العولمة إذا تحقّقت كحالة تاريخية مفروضة على المجتمعات، فإنّها ستتسبّب في انهيار الثقافة الموجودة لتتصدّع البنية الإسلامية للمجتمعات، وما يرتبط بها من بنيات لغوية وقيمية واجتماعية، وتمترست خلف هذه الرؤية تيارات فكرية وثقافية حدَّدت آليات التقاطب والصراع، وطالبت بالقطيعة مع الآخر المختلف وعيًا وثقافة.

والآخر: المتبنّي لفكرة التفاعل مع عناصر العولمة دون إحداث صدام بينها وبين التكوينات الفكرية العربية، في محاولة من الاتجاه التماهي مع المنجز المعرفي الغربي منهجًا وإنتاجًا.

وممّا شكَّ فيه أنَّ العولمة حظيت بتعريفات كثيرة ومتنوعة بحسب تنوع الكتّاب والمفكرين الذين قاربوا هذا المفهوم، ونظرًا لاتساع مفهوم العولمة وعدم وضوح ملامحها أو استقرار صيغتها التاريخية، فقد تداخلت التعريفات وتباينت الآراء ممّا حدا ببعض الباحثين إلى محاولة تحديد مظاهرها وخصائصها أو مجالاتها لتوصيف الظاهرة وصولًا إلى إعطاء تفسير علمي محدد لها. ولن تخوض هذه الدراسة في مناقشة التعريفات، إذ قد أشبعها الباحثون درسًا وتحليلًا (العلوم: ٢٠٠٣: ٣٧)، وما يعنينا في هذا الأم هو الملامح التي تتجسَّد من خلال هذه التعريفات إذ يفهم من مجملها أنَّ العولمة ظاهرة تاريخية قابلة للتبدّل والتغيّر وهي ليست مجرد تجلٍّ للظاهرة الاقتصادية أو السياسية، كما ذهب جلّ الباحثين الذين قصروا العولمة على النمو الرأسمالي أي رسملة العالم ببناه المختلفة من خلال اندماج أسواق المال وانتقال الأموال والاستثمارات المختلفة والخصخصة وحرية السوق إلى غيرها من الملامح الاقتصادية لظاهرة العولمة، والدراسة إذ لا تغفل الجانب الاقتصادي الذي كان وسيظل الملمح البارز في

الوجه العولمي، إلّا أنَّنا نرى العولمة بوصفها ظاهرة تاريخية تؤثِّر في البنى المجتمعية كافةً، ومن ضمنها البنية الثقافية والبنية السياسية (عصفور: ١٩٩٧: ٤٥).

إنَّ العولمة من الممكن أنْ تلغي البعد الوطني أو القومي الممثّل سياسيًّا بالدولة أو الأمة، وتزيل الممارسات والمفاهيم ومنظومة الرؤى المستقلة من خلال ثورة الاتصالات وتقنية المعلومات والشركات الاقتصادية الضخمة، بل حتى المؤسسات والمنظمات الدولية تسهم في تغليب نمط دَولي محدد يفرض على العالَم كلِّه، وتنخرط فيه ثقافات العالم المختلفة بفعل الفعاليات المضطردة المتنامية التي تخص الاتصالات الاندماجية المعقدة بين المجتمعات والثقافات والأفراد والمؤسسات على النطاق العالمي، فالعولمة هي الحركة الاجتماعية التي تتضمّن انكماش البعدين الزماني والمكاني، ليصبح العالم امتدادًا طبيعيًّا لنمط غالب ومتسيّد، ومن أهم مظاهر الغلبة هو سيادة لغة كونيّة حاكمة، بحسبان أنَّ اللغة تملك سطوة مهيمنة على صناعة العقل والوعي.

أثّرت تلك الرؤى في نزوع كثير من الناس إلى تعلّم لغة المتفوق حضاريًّا، لكن الانخراط في تلك اللغة وتداولها وَفق الثنائية اللغوية يجعل المتكلِّم يتحدّث لغة لا يمتلكها ولا تمثّله بنيويًّا وعلائقيًّا، بل لا تنتمي له ولا يمكن له أنْ يفكِّر ويشعر بلغتين، فالإنسان أحادي اللغة فكرًا ووعيًا، وازدواج لغته أو ثنائيتها تكون في بنيته الخارجية السطحية لا في بناه العميقة، إذ إنه لن يستوطن لغتين كما لا يمكن له أنْ يعتنق هويتين، فالأشخاص الذين يتقنون لغات عدة يميلون عادة إلى التحدث بلغة واحدة، حتى وإنْ كانت الأخيرة مجزأة، فلجهة أنّها لا تستطيع تقديم وعودًا للآخر ولذاتها على حد سواء، عبر التهديد بلجوئها للتجزيئي والتقطيع، فإنَّ لغة معينة لا يمكنها إلّا أنْ تتحدّث هي عن ذاتها، إذ لا يمكننا أنْ نتحدّث عن لغة ما إلّا بلغة هذه اللغة ذاتها، حتى عندما نود التخلص منها (دريدا: ٢٠٠٨: ٣٠-٣٦). يوضح دريدا أثر ثنائية اللغة في تكوين الاغتراب النفسي والاجتماعي، حين تتجاذب الفرد لغات متعددة، ينشد في كلٍّ منها هوية متخصصة له، بل قد تغدو اللغة الواحدة مثيرًا للاغتراب حين تكون بعيدة عن روح الجماعة التي ينتمي لها، فالهوية الفردية مندمجة بالضرورة ضمن الهوية الجماعية، وكلما كانت الثقافة الرسمية للمجتمع متسقة مع رغبات ونزعات الأفراد فإنّها ستحقق إمكانية إيجاد هوية متجانسة وهادفة ومتجذرة أيضًا. وبالنظر للواقع اللغوي في العالم العربي ضمن محورية ثنائية اللغة، نجد أنّها تستقطب وبمفارقة واضحة الذوات الهامشية، كما تستقطب الذوات الفاعلة في المجتمع وبطرائق متعددة تتسق وآليات تفكير كل منهما. فالذوات الفاعلة ترى أنَّ اللغة العربية أو لغتها الأم غير قادرة على مواكبة التطور والابتكار في ضَوء

مستجدات المعرفة، ولا بد من تجديد تلك اللغة وأنساق التفكير المرتبطة بها، وقد وقع هؤلاء في فخ التبعية الثقافية ولم يقدموا نتاجًا فكريًّا أصيلًا نابعًا من فهمهم لآليات التثاقف، بل ساروا بعيدًا حين أخذوا اللغة الثانية بقوالبها الجاهزة دون روح نقدية، لأنَّ استيراد اللغة وتبنيها لن يكون بمعزل عن الفكر الذي أنتجته تلك اللغة، وأصول تكوّنه الإيدلوجية والاجتماعية والاقتصادية؛ وستجلب اللغة الثانية معها كل مضمراتها الإيدلوجية وأسسها المادية والمعنوية، وما يستتبعها من تشكّل لهوية توفيقية، لا تعتمد الدمج الحقيقي القائم على إبقاء كل ما هو أصيل في الثقافة. أما الذوات الهامشية، فتبدو هوياتهم مستلبة لأنَّ محنتهم مضاعفة، فهم يرددون مقولات وتصورات النخب المتأثرة بالغرب دون فهم حقيقي لها، فضلًا عن اعتناقهم الثقافة الشفوية التي تتّسم بالتأثّر الآني والاستجابة الفورية لكلِّ مثير لا سيَّما تأثيرات وسائل الإعلام والاتصال التي تعتنق سياسة ترويض العقول تدريجيًّا، ومنها تسريب مفردات وجمل من لغات أخرى وإيهام من يتكلّم بها امتلاكه لثقافة فائقة تجعله في مصاف الغالب والمتسيد؛ لذا أضحى طبيعيًّا سماع أسماء أجنبية للأطفال أكثر من الأسماء العربية، وغدت أسماء المحلات والأعمال التجارية الأجنبية أكثر نجاحًا من مثيلاتها العربية، بل غدت اللغة الثانية مطلبًا ضروريًّا في مجمل مجالات الحياة، وهذه الدراسة ليست ضد تعلّم لغة أخرى، بل العكس تمامًا فالتكامل اللغوي والثقافي لن يتم بلغة واحدة فحسب، لكن الإشكالية تتمثّل في الغاية من تعلّم لغة أخرى، فإنْ كانت الغاية علميّة وتواصليّة ومعرفيّة فستكون شرطًا رئيسًا من شرائط تحقّق الذات والتنمية المجتمعيّة والتجديد الحضاري. أما إنْ كانت الغاية إقصاء الثقافة الأصلية والخضوع التام للثقافة الجديدة، فإنها ستنتج هوية راكدة متأرجحة بين مفاهيم وتصورات ومقولات متناقضة لن تفضي إلّا إلى مزيد من التشتت والضياع، فأنموذج الثقافة الواحدة التي تتبنّاها العولمة الثقافية تلقي بظلالها على مجمل البنيات الثقافية بما فيها البنية اللغوية، وتسهم التطورات التقنية التي شهدنا تسارع تقاناتها وآلياتها بما يدعو إلى التوقف عند سماتها ونظمها وتأثيراتها في المجتمع، إذ إنَّ "التقنية بتعبير دبليو. آي. مور: [تعدّ] من المكوّنات التي تصنع الثقافة، وتفترق عن سائر مكوّنات الثقافة وأجزائها، بأنّها عرضة للتغيير أكثر من تلك المكوّنات الأخرى، وبالتالي فمن المحتمل أنْ تفضي إلى تغييرات اجتماعية" (أبو القاسمي: ٢٠٠٨: ١١٦). من ذلك ما يُلمس في الإعلام الإلكتروني، الذي يتّسم بالشمولية العالمية وبقوة مستقلة تسيطر على الآخرين، إلى الدرجة التي تمكنه من جمع أصناف متعددة من الناس، كانت في السابق متمايزة، إلّا أنَّ الخصوصية التي تمتلكها تلك المجموعات من الناس قد ذوّبت فيما بينهم؛ ليمسوا منتمين إلى ثقافة واحدة، بقصدية التغيير الثقافي في القيم والسلوكيات والمعتقدات والتصورات. وهو ما نلاحظه في التواصل الرقمي المتعلِّق بطريقة الكتابة بالحروف الهجينة أو بالاقتصاد اللغوي

عن طريق استخدام رموز تعبيرية، وامتد هذا الأمر إلى مفاصل العملية التعليمية، لتغدو مدارسنا وجامعاتنا أمثلة على التغريب اللغوي، واغتراب الهويات بفعل مناهج وطرائق التدريس فيها.

الخاتمة:

إنَّ المقاربة البحثية المعتمدة على أُسس التحليل والنقد والمقارنة لا بدَّ أنْ تفضي إلى التوصّل لمجموعة من الرؤى والاستنتاجات والتوصيات التي تتَّسق وطبيعة البحث ومحاوره، وفيما يأتي أهم الاستنتاجات التي توصَّلت الدراسة لها:

١. إنَّ تحليل وظائف ومدلولات اللغة المرتبطة بالهوية تبيّن جدلية العلائق الرابطة بينهما القائمة على التفاعل التبادلي المتأثّر بطبيعة اللغة والمجتمع.

٢. تحدِّد الدراسات الثقافية ماهيّة الحقول المعرفية المرتبطة بظواهر معينة، مثل: اللغة والهوية، وكذلك، الحقول المضافة لها دون تعسّف في قبول زوايا النظر الخاصّة بالحقول الاجتماعية والفلسفية والاقتصادية والسياسية.

٣. الارتباط الجدلي الوثيق بين اللغة والفكر، وتداخل التصوّرات والمفاهيم بينهما بروابط قائمة على تفاعلية مهيمنة عليهما، ممّا يفضي إلى التلازم الحتمي بينهما، لا سيَّما في وظائف ومدلولات التفاعل الاجتماعي الصائنة للهوية الفردية والمجتمعية.

٤. توضيح النقطة الرئيسة المرتبطة بكل من الازدواجية اللغوية أو الثنائية اللغوية، وأثرها الفادح في إحداث شرخ في الهوية المجتمعية للفرد، فضلًا عن هيمنتها على ذهنية مستخدميها -الناطقين بها- مقابل الانحسار الواضح للغة العربية الفصحى، وما يستتبع ذلك من تغاير في أنماط التفكير والتلقي وتصوّر العالم.

٥. الركون إلى الازدواجية أو الثنائية اللغوية -بقصد أو دون قصد- بفعل تسيّد العولمة الثقافية، يفضي إلى تمييع الهوية الوطنية والقومية، ويوصل الشعوب المغلوبة لا سيّما العربية والإسلامية إلى خيار الانصياع الأعمى لمنظومة لغوية محددة مختلفة عنها في الثقافة.

-التوصيات:

ترى الدراسة أنَّ من واجب كلِّ مَن ينتمي إلى اللغة العربية بما تصوّره من ثقافة وفكر يعبّرا عن هوية أبنائها، تحمل مسؤوليته العلمية والبحثية التي تشكِّل الجزء الأهم والمرتكز الجوهري في العمل البحثي الرصين، بهدف المحافظة على لغته الأصلية بما تمثّله من تراث؛ لذا نورد التوصيات الآتية:

١. تأسيس مجلس أعلى في كلِّ البلدان التي تتكلّم العربية، مهمّته الحفاظ على سلامة اللغة العربية؛ وأن تُربط هذه المجالس بإدارة موحّدة لتسهيل عملها في وضع السياسات والبرامج اللغوية والثقافية، والآليات التي تمكّنهم من تحقيق هذا الغرض؛ على أنْ تكون هذه المجالس مرتبطة بدورها مع أقسام اللغة العربية وآدابها في المؤسسات الأكاديمية والبحثية.

٢. السيطرة على وسائل الاتصال، بوصفها المهيمن الأكبر على صناعة الوعي الفردي والمجتمعي بهدف توظيف تقانتها لتحويل مسارات هيمنة العامية واللغة الثانية التي تنتهجا في الوقت الراهن، عن طريق اتخاذ خطوات تصحيحية فيما يختص بذلك.

٣. تصحيح البنية التعليمية الموجودة في العالم العربي، منذ مرحلة الطفولة حتى المرحلة الجامعية؛ لتطوير اللغة دون المساس بجوهرها الثقافي.

٤. عقد الجلسات والمؤتمرات وورش العمل لمراجعة المشاريع الثقافية، وتحليل آلياتها وأنظمتها، وصوغ مشاريع ثقافية تغيريّة بعيدة عن التقاطب والتنافر السياسي والمجتمعي.

المصادر والمراجع:

أولًا: العربية والمترجمة:

- **إبراهيم، مصطفى إبراهيم. (٢٠٠٩). فلسفة اللغة: (نشأتها وتطورها وأبرز أعلامها). الإسكندرية/ مصر. دار المعرفة الجامعية.**
- **ابن جني، أبو الفتح عثمان. (١٩٩٠). تحقيق: محمد علي النجار. بغداد. دار الشؤون الثقافية العامة.**
- **أبو القاسمي، محمد جواد. (٢٠٠٨). نظرية الثقافة. ترجمة: حيدر نجف. بيروت/ لبنان. مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي.**
- **أبو زيد، أحمد. (١٩٨٣). "ليفي شتراوس عميد البنائيين في فرنسا". مجلة العربي. عدد ٢٩٣.**
- **إدواردز، تيم. (٢٠١٢). ط١. النظرية الثقافية: (وجهات نظر كلاسيكية ومعاصرة). ترجمة: محمود أحمد عبد الله، القاهرة. المركز القومي للترجمة.**
- **الجابري، محمد عابد. (١٩٩٩). ط٢. التراث والحداثة: (دراسات ومناقشات). بيروت/ لبنان. مركز دراسات الوحدة العربية.**

- الجابري، محمد عابد. (٢٠١٢). ط.٤. مسألة الهوية: (العروبة والإسلام ... والغرب). بيروت/ لبنان. مركز دراسات الوحدة العربية.
- الجندي، أنور. (١٩٨٢). الفصحى لغة القرآن، بيروت. دار الكتاب اللبناني.
- الخليل، سمير. (٢٠١٢). ط١. النقد الثقافي من النص إلى الخطاب. بغداد. دار الجواهري.
- الرويلي، ميجان/ والبازعي، سعد. (٢٠١٧). ط٦. دليل الناقد الأدبي. بيروت. المركز الثقافي العربي.
- الزغول، محمد راجي. (١٩٨٠). "ازدواجية اللغة: (نظرة في حاضر اللغة العربية وتطلع نحو مستقبلها، في ضوء الدراسات اللغوية)". مجلة مجمع اللغة العربية الأردني. السنة الثالثة. العدد المزدوج ٩-١٠.
- السامرائي، أحمد هاشم. (٢٠١٧). الازدواجية اللغوية بين العربية الفصحى واللهجات الحديثة. مجلة جامعة المدينة العالمية. ماليزيا. ع ٢.
- العلوم، حسن بحر (٢٠٠٣). العولمة بين التصورات الإسلامية والغربية. لندن. معهد الدراسات العربية والإسلامية.
- الفارابي، محمد أبو نصر. (د ت). التعليقات. إسطنبول. مجلس دائرة المعارف العثمانية.
- حنفي، حسن. (٢٠١٢). "الهُوية والاغتراب في الوعي العربي". مجلة تبيّن: م١. ع١.
- دريدا، جاك. (٢٠٠٨). ط١. أحادية الآخر اللغوية أو في الترميم الأصلي. ترجمة: عمر مهيبل. لبنان/ الجزائر. الدار العربية للعلوم ناشرون. منشورات الاختلاف.
- ريشل، مارك. (١٩٩٦). اكتساب اللغة. ترجمة: كمال بكداش. لبنان. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر.
- سوسور، فردينان دي. (١٩٨٨). علم اللغة العام. ترجمة: يوئيل يوسف عزيز. العراق، جامعة الموصل.
- عصفور، جابر. (١٩٩٧). آفاق العصر. دمشق. دار المدى.
- علوان، علي عباس. (١٩٧٥). تطور الشعر العربي الحديث في العراق. العراق. وزارة الإعلام.
- ليونز، جون. (٢٠٠٩). ط١. اللغة واللغويات. ترجمة: محمد العناني. عمان/ الأردن. دار جرير للنشر والتوزيع.
- مدكور، أحمد. (١٩٨٣). المعجم الفلسفي. القاهرة. الهيئة العامة للشؤون الأميرية.
- معلوف، أمين. (١٩٩٩). ط١. الهويات القاتلة. ترجمة: جبور الدويهي. بيروت. دار النهار للنشر.
- نلوف، ك، وآخرون. (٢٠٠٥). ط١. موسوعة كمبريدج في النقد الأدبي القرن العشرون: (المداخل التاريخية والفلسفية والنفسية)، الجزء التاسع. ترجمة: إسماعيل عبد الغني وآخرين. مراجعة وإشراف: رضوى عاشور. القاهرة. المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة.
- هيلمسليف، لويس. (٢٠١٨). ط١. مداخل لنظرية اللغة. ترجمة: يوسف إسكندر. مراجعة: حسن ناظم. سلسلة دراسات فكرية. جامعة الكوفة. بيروت. دار الرافدين.

<u>-ثانيًا الأجنبية:</u>

- Bertens, Hans. (2010). Second edition. Literary Theory: (the basics). Taylor and Francis. London/ New York.
- Eagleton, Terry. (2000). The Idea of Culture. Blackwell. Oxford/ Massachusetts.